الفصل الثالث

أفريقيا وإسرائيل

◆◆◆

obeikan.com

obeikan.com

■ المقال الأول:

إسرائيل بين العالم الأول والثالث

تعودت الأدبيات السائدة فى منطقتنا لفترة طويلة، السؤال عما إذا كانت إسرائيل دولة تابعة للغرب؟ أداة له وللرأسمالية الوحشية؟ أم كيان له ذاتية ويخطط للبقاء كذلك فى «الشرق الأوسط»؟ وطبيعى أن كنت أعيننا دائما على مدى توسع النفوذ الإسرائيلى فى العالم الثالث، وعلى مدى قدرتنا على محاصرتها، أو جعلها دولة منبوذة، أو تصويرها حتى كأمبريالية فرعية أى «أداة استعمارية». وبهذا التصوير، يسهل بالطبع الحديث عنها عند دول أفريقيا أو آسيا أو أمريكا اللاتينية. ولم يلفت نظر الكثيرين فى منطقتنا أن نغمة إسرائيل كدولة شرق أوسطية، لا تجد أى رواج فى إسرائيل التى نعرف عن إعلامها وسياستها الكثير الآن... وحتى بعد أن تم تحنيط صاحب مثل هذه الدعوة- شمعون بيريز- فى وضعه الصورى كرئيس لهذا الكيان.

وفى الفترة الأخيرة، اكتملت ترجمة أجزاء عديدة من خطة إسرائيل ٢٠٢٠ التى نشرها مركز دراسات الوحدة العربية مشكورا، بل ونشر الكثير متناثرا عن تطوير التفكير الاستراتيجى لإسرائيل إلى عام ٢٠٢٠. وفى جدل معمق حول هذا المنتج فى ندوة مركز البحوث العربية والأفريقية بالقاهرة بالتعاون مع المجلس القومى للثقافة العربية فى مطلع يناير ٢٠٠٨، تحاور باحثون عرب معظمهم من الشباب حول مخططات إسرائيل هذه بتحليل جوانب منها فى خمسة عشر بحثا تكشف عن فهم حقيقى للمخططات الإسرائيلية والصهيونية. وقد أتيح لى مراجعة كثير من الأوراق بل والأجزاء المنشورة باحثا عن مكان العالم الثالث الذى أهتم شخصيا بأخباره فى مثل هذا المخطط الإسرائيلى. كنت مدفوعا بما يسألنى فيه شباب

الإعلاميين دائما عن «النشاط الإسرائيلى فى أفريقيا»، و«استراتيجية إسرائيل تجاه دار فور، أو تجاه جنوب السودان أو حتى تجاه آسيا... إلخ»، وحاولت أن أشاركهم محاولة تعميق «الفذلكة» حول هذه الموضوعات بمعرفة معالجة استراتيجية إسرائيل ٢٠٢٠. للتساؤلات حول الدولة المنبوذة.. والدولة الأداة للإمبريالية.. إلخ! ويؤسفنى أن أعلن لأصدقائى فى أجهزة الإعلام العربية- وأرجو ألا يكون مقصدى الباحثين أيضا- أن إسرائيل لا تهتم كثيرا بعوالمكم المتواضعة هذه! وإمعانا فى صدمة الأصدقاء أسبق بقية المقال بالقول: «أنه على طول أكثر من ألف صفحة من الخطط المنشورة المترجمة، لا يهتم المخططون، وهم علماء ومهندسون، بل وفنانون وفلاسفة حضارة، وقيادات مجتمع مدنى»، لا تشير الكتابات الإسرائيلية إلا لماما لهذه العوالم «المتواضعة»، فى مقارنتها للواقع، أو تخطيطها للمستقبل. وقد أسارع بتعميق الصدمة، لو قلت للأصدقاء إن الخطط المكتوبة تتجنب الحديث عن وضع الدول الوسيطة التى تكاد أن تصبح كبرى مثل الهند أو البرازيل، وإنما تركز النصوص على بحث مكانة إسرائيل بين ما تسميه «الدول المتقدمة» التى لا تذكر فى مئات الصفحات عند المخطط الإسرائيلى دول «الاتحاد الأوربى» مثلا، فهذه أصبحت تضم تشيك وسلوفان وأمثالهم. وإنى تقارن الخطة طول الوقت بالدول المحور فى التقدم الغربى وهى دول «منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية OECD» وهى دول التقدم الحقيقى فى قلب «الغرب»! لا تسعى إسرائيل إذن أن تكون دولة وسيطة أو من الدول الوسطى فى قلب عملية التقدم الدولية، ولا أن تنى مستقبلها فقط على دور تابع أو وسيط أو شرق أوسطى وإنما تذكر بالنص أن هذا التطوير.. لاختصار الطريق نحو العالم ما بعد الصناعى... دون المرور بالضرورة بجميع المراحل الانتقالية للعالم الصناعى بمساوئه وأضراره، ولكى يتحقق ذلك لابد من «تقليص هوات التطوير فى مجالات الاقتصاد والمجتمع والبنية التحتية والبيئة».

(ويلاحظ القارئ دائما تلازم وضع المجتمع، والبيئة) ضمن عملية التطوير الرئيسية وفى الجزء الرابع المنشور مثلا «إن علاقات إسرائيل الاقتصادية مع الدول المتطورة ستكون خاضعة لصيغة: السلام والهدوء فى منطقتنا، هما شرط لتطوير علاقات اقتصادية مع الغرب... حيث يتوقع حصول تغيير سياسى نفسى فى النظرة الدولية لإسرائيل التى كانت تصنف إسرائيل كدولة خطرة... وهذا التغيير (المنتظر) سيشجع المستثمرين الأجانب على توظيف أموالهم فى إسرائيل».

فى ندوتنا برزت بدايات وعى جديد، أو قل مختلف عن السائد حول وعى إسرائيل بذاتها (أحمد البرقاوى) أو التصاعد النوعى فى اقتصاديات إسرائيل وليست كمجرد دولة تابعة (منير الحمش) كما ظهر الجهد الذاتى الذى ينمو فلكيا فى العلوم والتكنولوجيا (بهاء شعبان...) أو ارتباط كل ذلك بمفهوم «القوة» فى الفكر الصهيونى نفسه (عماد جاد)، وغيرهم والحق برعوا فى هذه الالتفاتة المهمة بعد قراءة مدققة للاستراتيجية الصهيونية المنشورة (مدحت أيوب..).

وبرز عندئذ التساؤل: هل علينا أن نصاب بالرعب فلا نفعل شيئا؟ لكن التقرير الذى قدم عن طبيعة المواجهة العربية خلال ثلاثين عاما (محسن عوض) كان يحيل إلى إحساس بعدم غياب الوعى الجماهيرى العربى من جهة، بينما يبدو غياب السلطة العربية الحاكمة عن هذا الدور مفزعا. ولم تنجح محاولات التذكير بدور التوحد العربى أولا (الحامدى) فى مواجهة إحباطات عالية من الموقف العربى.

لم أجد من جانبى ما أتدخل به حول ضرورة استمرار العمل العربى أولا لمحاصرة إسرائيل فى عوالم التوسع المحتملة فى أفريقيا وآسيا! كان فى ذهنى ما نقوم به من تحليلات فى هذه الفترة للسياسة الناصرية تجاه العالم الثالث (أفريقى وآسيوى خاصة) والنجاح الجماهيرى على الأقل فى محاصرة الناصرية لإسرائيل. كان ذلك بمناسبة

احتفالات الذكرى التسعين لميلاد عبد الناصر والذى احتفى بها هذا العام على نطاق واسع فى مصر (ولا أدرى لماذا إلا لتطلع الجماهير العربية إلى دور يفتقدونه أمام الوحشية الإسرائيلية تحديدا، حيث وحشية أمريكا أو العولمة ليست طارئة!

وكنت فى ترددى أشير إلى أنه يجب أن نتوقف عن الحديث عن النشاط الإسرائيلى هنا وهنالك بهذه الجزئيات التى تتردد، حول دار فور أو الصومال أو كينيا بما لم يعد لائقا للتفكير فى إطار العولمة، ومركز إسرائيل الكبير فى مؤسسات العولمة الكبرى (البنك الدولى وصندوق النقد واللوبيات الأمريكية.. إلخ). فالمسألة تحتاج إلى فكر استراتيجى عربى بعيد المدى، لا يرتعش أمام الجزئيات كما أنه لابد أن يتوقف عن أفكار عزل إسرائيل، أو أنها مجرد إمبريالية تابعة!

بدت محاولات إنقاذ المعنويات فى الندوة متعددة الأبعاد، لكن محورها كان عن بناء الذات العربية وطُرحت أفكار عن جبهة بلدان الجنوب «والدور العربى» فيها، وعن الروح الاستقلالية عموما والتى يجب أن تحركها النخب والمنظمات الشعبية.. إلخ. وهنا بدا تدخل مفكر بوزن سمير أمين ملخصا للفكر الاستراتيجى الواجب أمام ما نناقشه من استراتيجيات إسرائيلية. عبر سمير أمين بحدة تقترب من الاحتداد: إننا يا جماعة أمام مشروع متكامل يسمى استراتيجية إسرائيلية، بينما نفتقد على المستوى العربى العملية السياسية والاقتصادية والاجتماعية بل والثقافية لبناء المشروع العربى البديل. لقد شرعنا فى ذلك فترة بمحاولات سابقة أجهضت بسبب عدم مقرطتها شعبيا لفترة، ثم الإجهاز عليها لعدم عدالتها الاجتماعية لاحقا وإزاء ذلك يصعب التفكير فى مواجهة حقيقية..

وهنا انسحب أمثالى.. من المتحدثين عن مكانتنا فى العالم الثالث... ناهيك عن المقارنة بمكانة إسرائيل.

■ المقال الثانى:

إسرائيل.. من الشرق الأوسط لأفريقيا

قد تكون زيارة «ليبرمان» وزير خارجية إسرائيل لعدد من الدول الأفريقية مجرد جزء من الحملة الإسرائيلية لإعادة بناء صورتها الخارجية أو مكانتها الدبلوماسية كما يصرح بذلك بعض المسئولين العرب، خاصة ونحن نعرف أن السيد «ليبرمان» نفسه فى مأزق داخلى لا يحسد عليه. وحين يذهب البعض لأبعد من ذلك يرون أن الجزء الأكبر من الرحلة التى يحط فيها الوزير الإسرائيلى فى عواصم أثيوبيا وكينيا وأوغندا وهى من دول حوض النيل الأساسية إلى جانب زيارته لنيجيريا وغانا فى غرب القارة، وذلك ليظل الانتباه الإعلامى مركزا على دلالة نشاط المسئول الإسرائيلى فى دول تثير الأزمة أمام مصر بشأن اتفاقيات مياه النيل، كما تلمح إلى احتمال وجود دور إسرائيلى فى دفع موقف دول حوض النيل المذكورة نحو التشدد، ومحاصرة نصيب مصر وحريتها فى استخدام مياه النيل.

ورغم وجود أساس لهذه الاعتبارات فى إطار الزيارة التى يقوم بها الوزير الإسرائيلى كعمل دبلوماسى مباشر، فإن المسألة فى تقديرى تذهب لأبعد من ذلك بما يتوجب متابعته بعناية من قبل المسئول العربى فى مصر وخارجها، بل ويستوجب على الرأى العام الثقافى والعلمى أن يضع أمام الرأى العام جوانب المسألة الأخطر من مجرد التعليق على زيارة دبلوماسية من مسئول إحدى الدول لعدد من دول الجوار العربى.

قد تؤثر على الرؤية العربية أحيانا كثيرة، تصوراتنا الدائمة عن قوة الاعتبار الشخصى فى السياسات الخارجية أو الداخلية، ومن يتأمل تحليلات معظمنا عن

دور شخصية «أوباما» أو هيلارى كلينتون فى تغييرات كبيرة محتملة فى السياسة الأمريكية، لابد وأنه تلقى ردا سريعا بعد بضعة شهور من «الممارسات السياسية الأمريكية» عقب انتخاب «أوباما» لا تغير الواقع بسهولة، ويسهم فيها كل قادم جديد وكل ممارس عام بجزء يغلقه أو يلونه بالطبع بشئ مما يتيح له القبول الأكبر.

وإسرائيل ودبلوماسيتها جزء من آلة «العولمة»، وأقرب العناصر إلى الإدارة الأمريكية لها، وكوادرها مدربة على نفس الأساليب تقريبا، مع اعتبار طموحاتها الخاصة بل والمتزايدة بالطبع. وإذا تأملنا إطار السياسة الإسرائيلية فى السنوات الأخيرة سوف لا نختلف على الكثير من تحليلات عناصرها فى إطار السياسات الغربية القائمة عموما. وهى سياسات تسعى إلى تأكيد مفهوم خاص «للشرق الأوسط» بمسمياته المختلفة، وقد سبقت صياغة هذه السياسة مجيء الرئيس أوباما نفسه لتدور حول علاقة أو وضع الشرق الأوسط بالنسبة للمناطق والاستراتيجيات المجاورة (وسط آسيا وإيران والصين، وفى أفريقيا؛ العسكرة والقيادة العسكرية (أفروكوم) واضطرابات ممتدة تخدم استمرار المصالح فى دارفور وغرب أفريقيا والمحيط الهندى..).

وفى هذا الإطار نفسه تمد إسرائيل سياستها ودبلوماسيتها، لمصلحتها الخاصة واتفاقا مع المصالح المساندة الأقوى بالطبع، وتكاد تحركات الدبلوماسية والسياسية فى الفترة الأخيرة أن تقول صراحة إنها تمضى فى خدمة الاستراتيجية «العالمية» هذه، واستفادة منها، بذكاء؛ فى الخليج وإيران والمحيط الهندى.. وحتى حوض النيل حتى يفاجئنا ذلك «الوزير الشرس» بزياراته ودبلوماسيته التى يعلن فيها بالتصريح والمغطى، أنه يلتزم دبلوماسية واضحة، تجاه موضوع إيران، وموضوع تجارة السلاح، وتنمية التجارة والعلاقات الاقتصادية لإسرائيل ولكى يصبح موضوع

مياه النيل آخر ما يتحدث فيه الوزير، وكأنه موضوع جانبى ضمن ملفات الزيارة.

والوزير الإسرائيلى يرافقه وفد من عشرين عضوا من خبراء الدبلوماسية والتجارة والسلاح.. يستهدفون تطوير واقع الحضور الإسرائيلى فى أنحاء أفريقيا فى أطر أخطر كثيرا من موضوع مياه النيل الذى لم يشكل لهم بعد فى تقديرى- إلحاحا صارخا. ولابد أنهم مشغولون بالمقارنة بالحضور العربى فى القارة وخاصة من قبل مصر صاحبة الباع السابق فى هذه المساحة السياسية من العالم، والتى تريد إسرائيل انتزاعها تماما من دائرة النفوذ أو الحضور العربى. وإسرائيل هنا تتحرك نحو القارة كدولة كبيرة تشكل قوة إقليمية فى منطقتها- الشرق الأوسط- وتسعى لمد نفوذها الإقليمى وراء النفوذ الأمريكى فى أفريقيا، ما دامت ترتب علاقاتها مع الولايات المتحدة بدقة «علمية» وسياسية أفضل مما يفعل العرب على الأقل بكل ماليديهم من «أوراق اللعبة» كما يقال.

وإسرائيل تزيد تجارتها مع أفريقيا- جنوب الصحراء- عن أكثر من خمسة مليارات دولار سواء ما يرد فى إحصاءاتها الرسمية المباشرة أو ما يتضمن «الشركات الدولية» التى كانت تجنبها إجراءات المقاطعة، أو ما تتضمنه جملة «ماعدا تجارة الماس» التى تحتكر الشركات الإسرائيلية ٧٥٪ منها: ولكى نقدر معنى كل ذلك لابد أن نعرف أن تجارة مصر مثلا مع أفريقيا هذه لا تصل لعُشر هذه الأرقام! وعلينا أن نعرف أيضا أن تجارة جنوب أفريقيا مع إسرائيل تزيد على المليار دولار (رغم الحركة الشعبية المعادية لإسرائيل هناك ولا يلتقى بها السياسيون العرب) وأن إسرائيل أكبر مورد للسلاح لأغنى الدول الافريقية وأكبرها.. نيجيريا (رغم ثورة أبناء بيافرا المعادين السابقين للعرب) وأن إسرائيل أحد مصادر التدريب الأساسية لعملاء شركات الأمن العسكرى (التى امتدت من قبل إلى أنجولا وموزمبيق)

وتمتد دائما إلى الكونغو كنشاسا وإلى وسط الصحراء الغربية فضلا عما يقال عن وجودها فى أنحاء السودان والقرن الأفريقى..

وزيارة الوزير الإسرائيلى تشمل بالأساس الدول التى وثقت الولايات المتحدة علاقتها بها مؤخرا، سواء بالمؤتمر الأمريكى الأفريقى فى كينيا أو بخطاب أوباما لأفريقيا، من غانا، أو بزيارة هيلارى كلينتون لنيجيريا.

ومعنى ذلك أن الوزير الإسرائيلى الذى يبدو «أرعن» أو «مأزوما» داخليا فى الإعلام العربى، أو أنه صاحب التصريح الفج سابقا عن ضرب السد العالى بمصر، هو نفسه الوزير الذى يدعم الآن استراتيجية إسرائيلية راسخة ويبدأ رحلته بتصريح عن «إهمال إسرائيل للقارة لفترة طويلة (هكذا)»! وأنه يجب العناية بعلاقات إسرائيل فى أفريقيا ودعمها.

وهو يقصد كاستراتيجى عاقل ورشيد- أن إسرائيل الراسخة الوجود فى الشرق الأوسط تستطيع أن تكون راسخة أيضا فى أفريقيا، حيث يلتقى ذلك بعمق مع المصالح الدولية التى تنشط بتسارع ملحوظ ومتعدد الأطراف فى القارة.. ماعدا الطرف العربى بالطبع!

إزاء كل ذلك، لن أعود كثيرا إلى مسألة مياه النيل ومخاطر النشاط الإسرائيلى حولها. وذلك لأنى سأحيل القارئ إلى نفس المنهج التحليلى حول خطط إسرائيل مع السياسات العالمية أو المعولمة. ويجب أن نتصور فى مصر والعالم العربى أن موضوع مياه النيل أصبح فى السنوات الأخيرة ضمن ملفات البنك الدولى، والسياسات الدولية حول «تسويق» المياه عالميا، و«تسويق» المصالح حولها، إلى حد الحديث عن المشروعات التنموية المشتركة، أو تبادل المصالح فى أحواض الأنهار، أو دخول الأطراف الجديدة فى هذه الأحواض فى أطر تنموية و«سلامية» جديدة،

والعرب ليسوا بعيدين عن ذلك منذ كامب ديفيد، «وقنوات»(«وأنابيب السلام» فى اللجان الفنية بعد مؤتمر مدريد نفسه ١٩٩١.

وإسرائيل من أصحاب النفوذ فى البنك الدولى تعد وتغرى الدول الصغيرة بوساطاتها من أجل القروض والديون، وآخر أذرعتها كان «ولفو فيتز» من زعماء اليمين الأمريكى فى صندوق النقد الدولى لولا خروجه فى ظروف خاصة.

من هنا يصبح وجود إسرائيل قرب مياه النيل، ليس مجرد تأثير محدود على بعض البرلمانين فى كينيا أو المسئولين فى أثيوبيا وأوغندا ولكن الخطة تصبح أكبر من ذلك.. وأبعد.. وأخطر، فهى مسألة نفوذ إقليمى متزايد لإسرائيل فى صيغ للشرق أوسطية، وعسكرة أفريقيا تعمل بحرص على الالتفاف حول العالم العربى، أما الجزئيات.. فتعالجها بعض التصريحات المتبادلة!

◆◆◆

■ المقال الثالث:

تهديدات إسرائيل... أبعد من حوض النيل

يملك بعض الإعلاميين فى مصر قدرة على الفزع،، تشتت قدرة الرأى العام على التركيز ومتابعة الحقائق، وتعطى الحكم فرصة إطفاء النيران بأبسط التصريحات أو المناوشات الإعلامية. وهذا ما يمكن ملاحظته بسهولة من تناول بعض الدوائر الإعلامية أو السياسية لمسألة الخلافات حول مياه النيل لفترة ثم مضاعفة القلق بعد ذلك بربطها بزيارة «أفيجدور ليبرمان» وزيرالخارجية الإسرائيى لعدد من الدول الأفريقية، التى تقع بعضها فى حوض النيل.

وبينما يعتمد العمل السياسى والدبلوماسى فى مصر على الصمت أو الاتصالات الجانبية، فيما يسمونه بالدبلوماسية الهادئة إن وجدت، فإن قدرة «إسرائيل» الإعلامية جديرة أن تجعل المقارنة بين سلوك الدولتين مثيرة ، وها هو الوزير المعروف بأنه قنبلة إعلامية أساسا فى الواقع الإسرائيلى، يحوى ما أسماه ضعف الحضور الإسرائيلى بأفريقيا- فى رأيه- لمدة عشرين عاما.. إلى حملة كبيرة تسترد فيها إسرائيل وزنها ويؤكد فيها هو نفسه وزنه الداخلى بزيارته لخمس دول بارزة فى شرق وغرب القارة، ولا يسعه إلا أن يرهب من يعيشون على التصريحات الإعلامية، فى زمان العمل والاتفاقات الكبرى؛ لا يسع «ليبرمان» إلا أن يبدأ «بأثيوبيا» و «دول حوض النيل» ليؤكد إرهابه السابق عن ضرب «السد العالى» بالقنابل! والحقيقة أنه لا يقوم إلا بافتتاح مركز بحوث فى «أديس أبابا» ومشاركة عشرين من رجال الأعمال اجتماعهم مع قرنائهم فى العاصمة الأثيوبية فيما يسميه «منتدى اقتصادى» بينما يضم وفده رجال أعمال ومختصين بالتكنولوجيا وتجارة

السلاح والماس وشركات الأمن.

وبالمثل يفعل فى «كينيا» حيث تصريحات بعض البرلمانيين والصحفيين هناك معروفة حول حقوق بلادهم فى مياه النيل ومراجعة اتفاقياتها وهنا نجد ليبرمان ومصادره تتحدث عن اجتماعه مع وزير المياه فى كينيا وتبادل المذكرات معه، ثم لا ترد أية إشارات أخرى ذات قيمة بالنسبة لمكانة «حوض النيل» فى الدبلوماسية الإسرائيلية، بقدر عنايته مثلا بمواجهة إيران بما يجعلنا نتأمل فى أبعادها الاستراتيجية الأخطر على مستوى القارة والمكانة الإقليمية لإسرائيل مقابل اهتزاز المكانة المصرية والعربية.

ولا يمكن تعريف الدبلوماسية المصرية فى السنوات الأخيرة إلا بأنها «دبلوماسية مجهدة» ذات «قيادة منسحبة» أو «ملولة» من العمل الأفريقى بوجه خاص، بما يمكن أن يضحى بالمصالح أو المكانة ويفقدها أية فعالية فى مواجهة التصاعد الإسرائيلى المستدام من جهة واقتحامه مناطق حضورنا التاريخية من جهة أخرى.

والدبلوماسيات أو المكانة السياسية والخارجية لا تتحقق فقط بالإعلام أو حتى بالزيارات ومهرجاناتها الدبلوماسية هنا وهنالك، ولنضع شكوى «ليبرمان» عن ضعف سياسة إسرائيل فى أفريقيا، والتى يحاول هو استرداد أنفاسها بهذه الزيارة (كذا) لعدد من الدول الأفريقية، لنضعها أمام الحقائق الكبرى التالية، لصالح وزن إسرائيل فى القارة أمام الانسحاب المصرى الواسع فيها:

*إسرائيل التى يشكو وزيرها ضعف علاقتها بأفريقيا، تصل تجارتها المسجلة فى القارة لأكثر من ملياري دولار، مع العلم أن أكثر من ضعف هذا الرقم قائم لشركات مسجلة بمسميات خارجية أخرى لدواعى أخرى ومنها المقاطعة التى كانت قائمة. أى إن التجارة الإسرائيلية تدور رسميا فى حدود أحد عشر مليار

جنيها مصريا، مقابل نصف مليار باسم مصر...!

*وفى إسرائيل ثلاثة عشر شركة فى حلف تجارى «أفريجروب» (أفريقيا- إسرائيل- انفستمنت) لتجارة الماس، يسيطر على ٧٥٪ مما تملكه أفريقيا، وتخرج إحصاءاته عن أرقام التجارة الرسمية لاعتبارات أمنية، وبسبب طبيعة هذه الشركات الدولية أيضا.

*وإسرائيل هى رابع أو خامس دولة فى تجارة السلاح الكبرى فى العالم، وهى المصدر الأول فى هذه التجارة لعدد كبير من الدول الأفريقية (فصلا عن الآسيوية)، وتذكر نيجيريا تحديدا- أكبر وأغنى دولة فى القارة- على رأس اتفاقات التسليح الأخيرة بسبب الحكم المأزوم هناك سواء تجاه متمردى منطقة البترول فى دلتا النيجر أو مع مسلمى الولايات الشمالية الفقراء.

*ولإسرائيل باع طويل مع «شركات الأمن» السياسى والعسكرى التى باتت نمطا معروفا من الشركات المحترفة شبه التجارية، ممتدة من «العراق» و«أفغانستان» إلى «الكونغو» والمحيط الهندى، ويشكل هذا المجال جزءا مهما من التعاون العسكرى الإسرائيلى الأمريكى الذى يتيح لها التفوق وفتح الآفاق لا فى الشرق الأوسط فقط ولكن على مستوى عالمى يفوق حضورها الذى يجرى تكثيفه على مستوى القارة الأفريقية.

*وإسرائيل، لا تتوقف عند المشروعات الصغيرة، ولا المشكلات المحدودة حتى لو كانت اتفاقيات مياه النيل! كانت إسرائيل فى فترات مضت تثبت وجودها أمام الوجود المصرى والعربى بأبسط المساعدات الفنية، وكنا نسمى ذلك «التغلغل الإسرائيلى فى أفريقيا»، حيث كان على أكثر من ثلاثين سفارة عربية فى القارة التنبه لكل صغيرة وكبيرة تلمح إلى تزايد الوجود الإسرائيلى فى القارة. لكن إسرائيل

قادرة الآن على استغلال الشراكة مع الولايات المتحدة وأوربا فى مجال الاستثمارات الكبرى، كما تمتد هذه الشراكة نفوذا فى البنك الدولى وصندوق النقد الدولى لتقيم العلاقات مع أفريقيا كميسر للقروض والديون، هذا فضلا عن سعيها لدى المنظمات الإقليمية الكبرى فى أفريقيا نفسها. وكل ذلك مما يغرى دول القارة مجتمعة، وليس مجرد دول حوض النيل لتثق فى وزن إسرائيل الدولى، وتسلم معها بخطط البنك الدولى حول المياه والتنمية فى الحوض.

وإذا شئنا أن نرى أمورا أخطر قليلا ما يجرى استراتيجيا حولنا فلنعرف مثلا أن السيد «ليبرمان» يصل أثيوبيا بعد زيارة قادة الأركان الأمريكيين وخاصة للقيادة الأمريكية لأفريقيا (أفروكوم) لأديس أبابا وعقد ندوات استراتيجية فى العاصمة الأثيوبية حول مستقبل هذه القيادة فى القارة. كما أن وزير الخارجية الإسرائيلى، يزور (كينيا وأوغندا ثم نيجيريا وغانا) بعد زيارة «هيلارى كلينتون» لهذه الدول مباشرة وبحثها وضع القيادة العسكرية الأمريكية (أفروكوم) فى القارة فى عهد «أوباما» الذى وجه خطابه لأفريقيا من «غانا» المؤيدة لفكرة القيادة الأمريكية، كما راجعت موقف «نيجيريا» المتحفظ نسبيا على هذه القيادة.

الدبلوماسية المصرية المجهدة والملولة تعرف طبعا أنه كان لنا الكثير فى «نيجيريا»، و«غانا» وما زال لنا فى «أوغندا» وحتى «أثيوبيا» و «تنزانيا».. ولنقل- تفاؤلا- إن كثيرا من المسئولين يعرفون ذلك، ولكن التحرك فى نطاق سياسى كبير يحتاج إلى استراتيجية دائمة، وسياسة شفافة ومؤسسات تعى المصالح والارتباطات وتدير العلاقت مع الداخل والخارج على السواء. وذلك ضرورى- ومفتقد فى نفس الوقت عند المقارنة بإسرائيل الآن- لأن الأخيرة تعى معنى القوة الإقليمية وعناصرها فى التعامل مع مناطق العالم المختلفة ومنها أفريقيا كما نرى، وليس مجرد

الوجود حتى فى الشرق الأوسط، بينما تتجاهل مصر كل عناصر القوة الإقليمية عربيا وأفريقيا ودوليا، راضية بالمظاهرات الدبلوماسية أحيانا بما لا يخفى على أحد فى السودان والصومال وفلسطين والعراق والمغرب وموريتانيا، وحتى إدارة الشراكة مع ليبيا والجزائر.

ولقد دهشت وأنا أتابع أنباء «ليبرمان» بمصادر إسرائيلية تلفت نظره إلى عناصر ضده فى أكبر دولتين بأفريقيا: إلى ثورة اتحاد العمال وحزب المؤتمر فى جنوب أفريقيا ضد إسرائيل بسبب موقفها من الفلسطينيين، وتصريحات زعيم متمردى دلتا النيجر فى نيجيريا ضد تسليم إسرائيل السلاح للحكومة الفيدرالية. تذكرت عندئذ علاقتنا التى تهدر تباعا مع شعب جنوب أفريقيا وتراث حركته التحررية، وإلى فرصة فضح إسرائيل التى تاجرت ضدنا كثيرا فى مسألة مساعدة الحكم ضد بيافرا..

وتمنيت لو أن لمصر قدرة أكبر من مجرد الصمت، وتصورا حقيقيا لعناصر القوة الإقليمية، إلى جانب التمنى على إعلاميينا لوقف الصراخ فقط حول تهديد «ليبرمان» لمياه النيل!

◆◆◆

■ المقال الرابع:

أصوات أفريقية : إسرائيل دولة أبارتيد

يحتاج العرب الآن لمن يتحدث نيابة عنهم طالما قرروا- هكذا- التزام الصمت المطبق! وفى ذكرى نكبة ١٩٤٨ التى تجاوزت نصف القرن، وحيث لم يتبين العرب حقيقة المشروع الصهيونى المسمى «إسرائيل»، فيلهثون للتفاهم معه يقدمون ضمانات استقراره، فلندع أصواتا أخرى غير عربية تقول لنا، ما هى حقيقة عدوهم ذاك الذى يجب أن يناضلوا ضده من أجل حقوقهم الشرعية فى فلسطين، وبدورى لن أرهق القارئ فى المقدمات، فقد أعفانى زعيم حقيقى بحجم «نيلسون مانديلا» ،وحلفاؤه السياسيون من كثير من الكلام فى هذه المناسبة التعيسة... حيث أعد أحدهم خلاصة من مجمل تصريحاته فى شكل حديث موجه لصحفى أمريكى صهيونى. ولا تعود أهمية تصريحات «مانديلا» إلى أنه ذلك الزعيم الذى قضى ٢٧ عاما فى السجن من أجل قضية شعبه، وتنحى عن السلطة بعد انتصاره إلا لفترة انتقالية محددة ولكن حديثه هنا ينبع من أنه الرئيس الراعى للمؤتمر العالمى ضد العنصرية فى جنوب أفريقيا أول سبتمبر ٢٠٠١ مشاركا مفوضية حقوق الإنسان بالأمم المتحدة، وكان ذلك يفرض عليه كثيرا من الدبلوماسية فى تناول قضايا «شائكة» مثل المسألة الفلسطينية حسب التعبير الأوروبى مثلا، ولكنه جاء صريحا غاية الصراحة، مستقيما مع نفسه ومبادئه وتاريخ نضاله، وانتصارات بلاده.

فمن تصريحات مانديلا التى صيغت للرد على الصحفى الشهير عند العرب «توماس فريدمان»بعد أن نشر الأخير مقالاته الدفاعية عن إسرائيل ورفض فى نفس الوقت نشر هذه الصيغة بينما يقدم هو شرح السياسة الأمريكية بهذه الطريقة آخرها عن سياسات «بوش» نفسه فى مارس ٢٠٠١، فى نيويورك تايمز.

وسأمضى بسرعة إلى جوهر تصريحات «مانديلا»- وهى جديرة بالنشر كاملة- ليعرف المناضل الفلسطينى والمواطن العربى أنهم لا يقفون وحدهم كانطباع لما يعانونه من الموقف العربى كما أتصور أن يستفيد الإعلامى العربى من هذا المنطق.

يبدأ «النص» بالإشارة إلى ما قاله مانديلا فى محاكمته الشهيرة من قبل النظام العنصرى (الأبارتيد) عام ١٩٦٤ «وهو أنه ضد الهيمنة البيضاء وضد الهيمنة السوداء، وأنه يتمنى أن يعيش فى مجتمع ديمقراطي وحر» الناس فيه سواسية، ولكنه بقدر ما يريد أن يعيش ويحققه فإنه مستعد للموت من أجله ... واليوم تحقق البيض والسود أن الأبارتيد لا مستقبل لها، وقد تحقق ذلك بفضل النضال الجماهيري» إنه «قد يدهش حين يلاحظ أن الموقف فى فلسطين أو بالأحرى بنية العلاقات بين الإسرائيليين والفلسطينيين هى بنية «نظام أبارتيد». وفى تقدير «مانديلا» أن الخطأ هو اعتبار بداية المشكلة بعام ١٩٦٧ لأن المشكلة فى الحقيقة بدأت عام ١٩٤٨ حيث لابد من حل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين. وهى ليست مجرد مسألة احتلال عسكرى، فإسرائيل ليست دولة «عادية» احتلت أرض الغير عام ١٩٦٧، والفلسطينيون لا يناضلون من أجل «دولة» إنما من أجل الحرية، والتحرر، والمساواة، والعدل، مثلما كنا نناضل من أجل الحرية فى جنوب أفريقيا».

وفى السنوات الأخيرة- يقول مشروع رسالة مانديلا- «لم يعبر الإسرائيليون عن نواياهم لإعادة الأرض التى احتلوها عام ١٩٦٧، فالمستوطنات مازالت هناك والقدس تحت السيادة الكاملة لإسرائيل، ولا يتحقق للفلسطينيين دولة مستقلة، وإنما يعيشون تحت سيطرة إسرائيل على الاقتصاد والحدود والجو والماء والبحر».

ذلك فى تقدير مانديلا، حالة «فصل عنصرى» تبقى فيه «إسرائيل» ليهود إسرائيل وحدهم ولا يستطيع الفلسطينيون أن يشكلوا أغلبية فى المستقبل.

وإذا حدث هذا فإن إسرائيل إما أن تكون دولة ديمقراطية علمانية أو دولة قوميتين، وإما أن تتحول «لدولة أبارتيد» ليس فقط واقعيا وإنما قانونيا.

إن ذلك هو ما يشير له النظام القانونى، ونظام الملكية والأرض فى إسرائيل، بل إن ما يسمى بمناطق الحكم الذاتى الفلسطينى ليست إلا بانتوستانات.... وهذه وحدات مقيدة فى بنية سلطة أبارتيد الإسرائيلية. إن التمييز العنصرى الإسرائيلي يمتد بكافة مناحى الحياة اليومية ولا مكان للعرب الفلسطينيين فى الدولة «اليهودية».

ثم يقرر مشروع الرسالة: «إن الأبارتيد جريمة ضد الإنسانية، وهى تحرم ملايين الفلسطينيين من حريتهم وممتلكاتهم، فى نظام للتميز العنصرى تماما، وهى تسجن آلاف الفلسطينيين وتعذبهم ، ضد قواعد القانون الدولى، إنها تشن حربا على السكان المدنيين وخاصة الأطفال. ويصدر موقف جنوب أفريقيا عن رغبتها فى وقف سياسة الأبارتيد قبل الحديث عن الحل العادل والدائم فى الشرق الأوسط».

وكان مانديلا بالفعل قد كون انطباعه الصريح والصارخ هذا من واقع زيارة سابقة له إلى فلسطين والكيان الصهيوني من جهة، ومن واقع تقرير أحدث من ذلك كثيرا نشره وفد الحزب الشيوعى فى جنوب أفريقيا عن زيارته لفلسطين فى فبراير ٢٠٠١ أى بعد الانتفاضة. وهو حليف لحزب المؤتمر الوطنى الأفريقي الحاكم؛ بل والأكثر دلالة أنه يضم فى قيادته العناصر اليهودية- البيضاء- التى شاركت- وليس فقط أيدت- حزب المؤتمر فترة كفاحه السياسى والمسلح ضد نظام الأبارتيد فى جنوب أفريقيا والتقرير الذى نشره الحزب عقب عودة وفده جدير بدوره بترجمة كاملة، ولكن لنأخذ منه ما قد يفيد ما ذكرناه أول المقال.

فالتقرير يحمل عنوان: «إسرائيل دولة أبارتيد» ويبنى رأيه بعد المقدمات منطلقا

من جملة افتتاحية تقول «إن الموقف الصعب فى فلسطين يمثله ٥٢ عاما من نظام الأبارتيد، والاحتلال وإرهاب الدولة الإسرائيلية، والعنف، والإخضاع والحصار الاقتصادي غير العادل لفلسطين من قبل إسرائيل وخاصة مع استمرار هذا الموقف في شهور الانتفاضة. ومع الصمت الذى يدعم دولة إسرائيل العنصرية (الأبارتيد)» ويذكر البيان بعد ذلك الإجراءات العسكرية والمستوطنات وحالة الإبادة للبشر (الجينوسايد) مثلما كان الحال فى جنوب أفريقيا. ويشير إلى المعلومات عن الذين استشهدوا بالآلاف الآن والأشجار التى خلعت والأرض التى دمرت. ليطالب فى النهاية بإنهاء الاحتلال الإسرائيلي وإقامة دولة فلسطين المستقلة وعاصمتها القدس وتوفير دولة للشعب الفسطيني، وعدم انفراد الولايات المتحدة بالوساطة ثم استئناف مفاوضات إسرائيلية فلسطينية ذات معنى لتحقيق هذه الأهداف.

وهو فى النهاية يطالب حكومته باتخاذ الموقف المناسب، بل ويطالب الجالية اليهودية فى جنوب أفريقيا بمناقشة دورها فى التوصل لحل سلمى للمسألة الفلسطينية، كما يناشد وسائل الإعلام وجماهير جنوب أفريقيا بالتعبير عن تفهمها وتضامنها مع الشعب الفلسطيني. بشكل منظم.

هذا موقف أفريقي مشرف ومليء بالدلالات.. ولا يحتاج إلى مزيد من التعليق.

◆◆◆

■ المقال الخامس:

رؤية أفريقية:

استحالة «حل الدولتين» بعد «حرب غزة»

أثارت قسوة العمليات العسكرية وفظاعتها فى «حرب غزة» ضد الفلسطينيين مشاعر كثير من المفكرين فى أنحاء العالم، فيما بدا أن كثيرا من مسلمات الواقع فى الشرق الأوسط باتت موضع مراجعة جذرية بقدر عمق ما حدث. وقد وصلنى من صديق، أستاذ أفريقى متميز، نصا فكريا صاغه من موقعه، رغم أنه تعبير عن رأيه الشخصى، لكنه لافت بحق لما أصبح عليه الحال فى تطور الأفكار تجاه إسرائيل وحقوق الشعب الفلسطينى، وبدت المسألة تتعلق فى تقديرى بما يمكن أن يملكه مثقفونا من «شجاعة القول» على هذا النحو اللافت.

البروفيسور ياش تاندون Yash Tandon أوغندى من أصل آسيوى، تعلم فى جامعة مكاريرى الشهيرة بأوغندا فى الستينيات. وأكمل دراسة الاقتصاد السياسى فى مدرسة لندن للاقتصاديات، الشهيرة أيضا، ثم عين أستاذا بجامعة دار السلام بتنزانيا. وشارك فى حملة المعارضة لديكتاتورية عيدى أمين حتى سقط، وقد عرفته خلال كل ذلك أستاذا مفكرا لامعا فى رابطة أساتذة العلوم السياسية الأفريقية، ثم أسس معهدا استشاريا للمعلومات وآلية التفاوض لدول شرق وجنوب أفريقيا بزيمبابوى فى الثمانينيات والتسعينيات حيث أسهم فى مواجهات الدول الأفريقية مع منظمة التجارة العالمية واتجاهاتها المجحفة. وهو الآن السكرتير التنفيذى «لمركز الجنوب» الذى أسسته «لجنة الجنوب» المرتبطة بالأمم المتحدة عام ١٩٩٥ كمنظمة حرة وشبه حكومية تنفيذا لروح «تقرير الجنوب» الشهير الذى

صدر عن الأمم المتحدة لصالح توازن العلاقة بين الشمال والجنوب قبل اكتساح عملية العولمة للعالم مؤخرا. والمركز فى جنيف تسهم فيه أكثر من خمسين دولة لتقديم المشورات والمعلومات والتقارير لأعضاء الأمم المتحدة من بلدان الجنوب خاصة، ولذا تقف وراءه عدة دول أساسية من آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية والبلدان العربية. ومن هذا الموقع وضع «ياش تاندون» ورقته عن المشكلة الفلسطينية أواخر أيام «حرب غزة» كما يسميها (٢٠٠٩) بعنوان «المسألة الفلسطينية- الإسرائيلية ووهم حل الدولتين». وقد سجلها على الموقع الإلكترونى لمركز الجنوب ليطلع عليها ممثلو شعوب العالم!

أولا: بدا «تاندون» منزعجا من مسار الحرب المدمرة فى غزة ضد الشعب الفلسطينى، واعتبر فى استنتاجه الرئيسى طوال الورقة، أن هذا الدمار لا يمكن أن يساعد الحل السلمى الشائع عن طريق إقامة وتعايش دولتى الإسرائيليين والفلسطينيين أو ما يسمى «حل الدولتين». ومنذ الفقرة الأولى يقول: «كان أحد ضحايا الحرب فى غزة، هو الحل القائل بدولتين فى فلسطين وإسرائيل، إذ تلقى هذا الحل- بعد حرب إسرائيل على سكان غزة- ضربة قاتلة». والموقف فى فلسطين حالة كلاسيكية للمأزق التاريخى، ويبدو الخروج منه مستحيلا فى رأى تاندون، لأنه استغرق ستين عاما من زماننا وقرونا قبل ذلك. إن إسرائيل- فى تقديره- تريد تدمير الفلسطينيين لأن ميزان القوة لعسكرية فى صالحها، لكن الموقف يمكن أن ينعكس فى جيل آخر إذا بقيت ذكرى غزة فى الخلفية العربية، بما يمكن أن يدمر يهود إسرائيل؛ على الأقل! ذلك أن إسرائيل لن تستطيع التدمير الشامل «لحماس» أو أيديولوجيتها، الآن أو القضاء بالقوة على الشعب الفلسطينى فى خارج فلسطين.. لذلك يصعب طرح «حل الدولتين» فى هذه الظروف، ولابد من دراسة حلول

أخرى ووضعها فى الاعتبار.. وعين البروفيسور «ياش تاندون»- كما سنرى- على «دولة فلسطينية واحدة» على نحو ما يفصله بعد ذلك إزاء عدم واقعية «حل الدولتين» الآن. بل وإن «حل الدولتين» يبدو زائفا «فى نظر تاندون؟ وسوف نقدم هنا موجزا عن عرض «تاندون» لأسباب عدم واقعية حل الدولتين؛ ونلخص بعد ذلك رؤيته «للحل العملى»، مراعاة لضيق المساحة التى لن تستوعب مجمل دراسته. الأسباب عنده ثلاثة:

١-ازدياد الاعتراف بأن حل الدولتين مخادع، لأنه- فى الواقع- جزء من رؤية الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى للإستراتيجية الجيوبوليتيكية العالمية وأمن الطاقة؛ بينما يقدم على أنه حل «للمشكلة الفلسطينية».

٢-تصاعد التساؤل حول شرعية إقامة إسرائيل عام ١٩٤٧.

٣-تزايد الاعتقاد لدى الفلسطينيين بأن المستقبل هو لصالحهم قطعا، وأنهم يستطيعون الانتظار!

فى تفسير «تاندون» لزيف القول «بحل الدولتين»، يستدعى أولا نفى التفسير الذى روجه بعض المحللين عن أن الهجوم الأخير على غزة إنما هو مجرد مسألة انتخابية بين الأحزاب الإسرائيلية الساعية للأصوات، لكن الأمر أعمق من ذلك، إذ تبدو الحرب فى رأيه أنها «آخر حرب لبقاء إسرائيل» إزاء شعورها بالتهديد من وجود حماس فى غزة، ولذا تقوم بالتصفية الجماعية لقيادات حماس وغيرها من الشعب الفلسطينى لتحقيق «حل نهائى» بشأن ما يهدد وجود إسرائيل كدولة... أما بالنسبة للغرب فهى حرب لحماية المصالح الحيوية الجيوبوليتيكية فى الشرق الأوسط، ومنافذ البترول والطرق البحرية والجوية، وذلك وفق مفهوم «أن إسرائيل هى القوة المسيرة لذلك»..، وأنهم فى حاجة إليها الآن أكثر من أى وقت. وهى التى

تستطيع التعامل مع مشكلاتهم فى الشرق الأوسط إزاء انشغال الغرب بأزمته الحالية.

ويورد «تاندون» ملخصا لدراسة المجلس القومى للمخابرات الأمريكية عن الاتجاهات العالمية حتى عام ٢٠٢٥ وعن زوال قيمة «الدول القومية» فى المجتمع الدولى مع ظهور قوى جديدة مركزية إزاء ضعف التحالف الغربى، من أمثال روسيا والصين وإيران والبرازيل والهند.. وجنوب أفريقيا....

ومن هنا تبدو أهمية إسرائيل فى مثلث مع الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى. ومن هنا أيضا يبدو زيف القول بأن الحلف الأمريكي الأوروبى- وحتى مع الحكومات العربية الحليفة له- يمكن أن يكونوا «وسطاء طيبين» بين إسرائيل والفلسطينيين! وإن كان لا مفر لديهم فى نفس الوقت من معالجة الأمر وفق نظريات القوة الناعمة، حيث الخشونة مع بلد مثل إيران أو حركة المقاومة فى العراق وفلسطين قد تؤدى إلى إشعال الموقف...

وحتى فى فلسطين نفسها فقد دخل عامل جديد لأهمية التعاون الداعم لإسرائيل. هناك احتياطى كميات الغاز الإستراتيجية على سواحل غزة والمصالح المشتركة فيها بين الشركات البريطانية وإسرائيل ومصر وتركيا وبعض العائلات فى لبنان وعناصر فتح فى السلطة الفلسطينية تحت قيادة محمود عباس... وهنا يبدو أن «حماس» باتت ترمى الذباب فى الإناء، لتتحول بعض المليارات من الدولارات إلى صندوق «جماعة إرهابية»! ووفق مصادر عسكرية إسرائيلية فقد كانت الخطة لغزو «غزة» معدة من يونيو ٢٠٠٨، وأعطت إسرائيل الإشارة للشركة البريطانية للغاز لمواصلة التفاوض الذى كان قد توقف معها من قبل حول شراء الغاز الطبيعى من غزة.

ثانيا: فى جزء خصب بالنقاش حول مشروعية إقامة إسرائيل ١٩٤٧، وتسمية العرب لذلك بالنكبة وحتى هزيمة ١٩٦٧ بعدها، يشير «تاندون» إلى أن الموقف منذ ١٩٨٨ اختلف كثيرا باعتراف منظمة التحرير بالتراجع عن تحرير فلسطين ككل، ثم عقد اتفاق «أوسلو»، مما جعل الأمر يبدو- فى رأى معظم الفلسطينيين، كأنه شبه قبول بمثل نظام «الأبارتهيد» فى جنوب أفريقيا وتقسيمها إلى بانتوستانات. ويدعم «تاندون» تحليلاته بقراءة واقع هجرة اليهود، ومسئولية أوروبا التى توجب النظر إلى مشكلة اليهود كمشكلة أوربية، بدلا من عدم انتزامهم الصارخ بوعودهم للعرب لحل المشكلة. ولا نملك ونحن نختصر عرض جدل «تاندون» المعمق فى هذا الصدد إلا الإشارة لتحليله لكيفية التصويت على شرعية قيام إسرائيل وعدم قدرة الغرب حتى فى ذلك الوقت على الحصول على ثلثى أصوات الجمعية العامة إلا بفارق ٣ أصوات لليبيريا والفلبين والهايتى اعتبارا لوضع الولايات المتحدة لها كمسألة أمن وإلا لما قامت إسرائيل ١٩٤٨! ومع ذلك ففى أثناء «حرب غزة» ٢٠٠٩ يعلن رئيس الجمعية العامة الأب «ميجل بروكمان» أن ما يجرى فى فلسطين هو عمل من أعمال «الإبادة الجماعية».

ثالثا: حول تمسك الفلسطينيين بأن المستقبل لصالحهم: يرى تاندون أن الموقف الجيوبوليتيكى العالمى يتغير لصالح الفلسطينيين .. فالرأى العام الأوروبى ورأى اليهود الأمريكيين الشبان لم يعد يهتم بإسرائيل، وتضيق الدائرة عليها بالتهديد النووى الإيرانى وبقيام حماس بالإضافة للغضب العربى. وها هى الحرب الأخيرة فى غزة لم تساعد الحل الإسرائيلى بالقضاء على الفلسطينيين ومن ثم يفشل «حل الدولتين»...

أخيرا: ما هو الحل المتوقع؟ لا مستقبل لحل الدولتين فى فلسطين- فى رأى

تاندون اللهم إلا فى الدعاية الإسرائيلية، فهى عنده كيان صناعى زرع فى الشرق الأوسط، والبديل لا يتوقع من قبل اليهود، ولكن من الولايات المتحدة وأوروبا، لأنهما أصحاب المصلحة فى دورها لحماية مصالحهما الاستراتيجية. وهنا يدرس البروفيسور تاندون تفاصيل الحل الذى يقدمه حول «الدولة الواحدة» على نمط قريب مما حدث فى جنوب أفريقيا. بعد دراسة طبيعة التطور الديمغرافى للشعب الفلسطينى والجماعة اليهودية فى فلسطين.. وهو لا يتوقع هجرة فلسطينيين إلى الدول المجاورة أو الخارج، لكنه يطرح تفاصيل احتمال ميل قطاعات كبيرة من اليهود للهجرة من إسرائيل، ويقدم تحليلات إحصائية عن «التقليديين» و«الأرثوذكس» «والحاريدى» من اليهود الذين يقبلون التجمع فى مكان آخر...

ويفاجئنا «تاندون» بتوقعه أن يكون ذلك فى الولايات المتحدة؛ فى «يوتا» أو نيفادا كاليفورنيا! ذلك لأنه يرى أن الثقافة الديمقراطية التى بناها الإسرائيليون فى ظروف «الأبارتهيد الإسرائيلية» على نمط ديمقراطية نظام جنوب أفريقيا تصيغ نمط تفكير عناصر قيادية جديدة على نفس النمط الذى تم فى جنوب أفريقيا لإقامة «الدولة الواحدة» على أسس جديدة لا يشكل فيها اليهود شعب الله المختار لفلسطين! وهنا فإن الغرب الذى خرق وعوده للعرب أثناء وصايته على فلسطين بإقامة إسرائيل مسئول أن يعاود تفكيره فى مسئوليته الجديدة. ويورد «تاندون» من مخزون وثائقه، مذكرة الخارجية الأمريكية عند موافقتها على القرار ١٨١ والتى ربطت الموافقة «بتحديد» الهجرة اليهودية، وإقامة إقليمين (أو محافظتين) للعرب واليهود وليس دولتين. «ويمكن لليهود بدلا من ذلك أن يقيموا محافظة تدعى «إسرائيل» لو شاءوا»، مع فارق فى رأى «تاندون» أن تكون فى الولايات المتحدة وليس فى الشرق الأوسط، أى فى مكان ما بين يوتا وكاليفورنيا.

إن «تاندون» ينطلق طوال البحث من حق الفلسطينيين الديمقراطى فى إقامة «الدولة الواحدة» والتزام الغرب «الديمقراطى» أيضا بمسئوليته التاريخية عن ذلك أثناء الوصاية على فلسطين، كما ينطلق هذا المفكر الأفريقى فى النهاية من الحق فى التفكير الشجاع، لأن أحدا فى جنوب أفريقيا لم يكن يتوقع تغييرها على هذا النحو قبل هزيمتها فى أنجولا، وهو لا يطلب- فى حله هذا- الموت أو الدمار لأحد....

ويحتاج الجدل مع «تاندون»... وواقع صدور مثل هذا التفكير من ساحة أفريقية واسعة ومسئولة، وبعد خروج الآلاف فى ديربان (جنوب أفريقيا) لتأييد الشعب الفلسطينى فى غزة... يحتاج كل ذلك إلى مناقشة عربية جادة.. حول المستقبل... جديرة أن تتم فى الأوساط الثقافية والشعبية العربية.. هذه المرة.

◆◆◆